بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة البحث:

الحضارة الإسلامية وتحديات الحضارة الغربية عند المؤرخ فرنان بروديل

أ. د. هاشم يحيى الملاح*

يعد فرنان بروديل (1902–1985م) أحد أشهر المؤرخين الفرنسيين الذين لمع نجمهم في العالم في مجال الدراسات الحضارية المقارنة في النصف الثاني من القرن العشرين. لذا فقد وقع اختيار الباحث على دراسة موقفه من الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالحضارة الغربية من خلال كتابه (قواعد لغة الحضارات) الذي نشر بهذا العنوان في سنة 1987. وسنعرض في النقاط الآتية أهم ما توصلت إليه الدراسة:–

1. يرى بروديل أن الحضارة الإسلامية هي حضارة حية، وأن علاقتها مع الحضارات الأخرى هي "علاقات استعارة متواصلة ومتبادلة". لذا فإن "ماضي هذه الحضارات ليس إلا تاريخ الاستعارات المتواصلة التي كانت تمارسها بعضها مع بعض عبر القرون دون أن تفقد خصوصيتها أو طرافتها".
2. يرفض بروديل نسبة الافضلية في القيمة إلى الحضارة الغربية، ويرى في ذلك نوعاً من التمييز والتعالي على حضارات العالم الأخرى، وإنكاراً لما قدمته من مساهمات في خدمة الإنسانية.
3. يلاحظ بروديل إن الحضارة في الوقت الذي تميل فيه إلى استعارة ما يلائمها من الحضارات الأخرى، فإنها تقوم في الوقت نفسه برفض ما يسيء إلى هياكلها العميقة.
4. وفي الوقت الذي تسود فيه العلاقات السلمية بين الحضارات في ظل أوضاع معينة، فإنه في ظل أوضاع أخرى تغلب فيه العلاقات العنيفة – وكأنها هي القاعدة الغالبة في العلاقة بين الحضارات، على الرغم من أنها "عديمة الفائدة على المدى الطويل في أغلب الأحيان".
5. يرى بروديل أن الحضارة الإسلامية قد نشأت في القرن الثامن للميلاد أي بعد ظهور الإسلام بأكثر من مائة عام نتيجة للتفاعل الحضاري العميق بين المسلمين الفاتحين وسكان البلاد المفتوحة من اتباع الحضارات القديمة. وقد بلغت الحضارة الإسلامية أوج ازدهارها ما بين القرن (8–12م) ثم مالت إلى التوقف عن النمو، لكنها لم تمت

* الأستاذ المتمرس في قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الموصل.

وواصلت حياتها (مع التوقف عن النمو والتطور) حتى القرن الثامن عشر، حيث خضعت لهيمنة الحضارة الغربية بسبب تفوقها في حيازة القوة الصناعية والتكنولوجية.

6. يؤكد بروديل أن الحضارة الإسلامية لا زالت حضارة حية، وأنها قادرة على تجديد نفسها من خلال الاستعارة من الحضارة الغربية في المجالات العلمية والصناعية وغيرها. وهو يقدم جملة من المقترحات والأفكار وقد عرضها البحث بإيجاز.
7. ويجيب بروديل على التساؤل حول آفاق المستقبل بالنسبة للحضارة الإسلامية فيقول: إن هذا التساؤل لا يتعلق بمصير الحضارة الإسلامية وحدها، وإنما يشمل الحضارات الأخرى أيضاً. لذا فإن من المناسب وضع السؤال على النحو الآتي: هل ستفرض الحضارة الحديثة التجانس على العالم وتلغي الحضارات الخاصة؟.. ويجيب "من الثابت أن المكننة بنتائجها الكثيرة جداً، قادرة على لي أعناق الكثير من هياكل الحضارات وتحطيمها وإعادة صياغتها لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك مع كل الهياكل، لأن المكننة لا تمثل حضارة في حد ذاتها.. إن إعمال الفكر في القوميات الأوربية يجعلنا نشك كثيراً في قدرة المكننة على توحيد الكون وجعله متجانساً...، فكيف يمكن للتقنية التي عجزت عن القضاء على الخصوصيات الجهوية أن تلغي الشخصيات القوية التي هي الحضارات الكبرى (ومنها الحضارة الإسلامية) القائمة على الأديان والفلسفات والقيم الإنسانية والأخلاقية المختلفة جوهرياً فيما بينها".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضارة الإسلامية وتحديات الحضارة الغربية عند المؤرخ فرنان بروديل

أ.د. هاشم يحيى الملاح
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الموصل

تمهيد:-

يعد فرنان بروديل (1902-1985) من أشهر المؤرخين الفرنسيين الذين لمع نجمهم في مجال الدراسات التاريخية والحضارية في القرن العشرين إلى جانب عدد من المؤرخين البارزين الذين سبقوه في هذا المجال من أمثال أوغسطين ثيري وميشليه وأرنست رينان ومارك بلوخ ولوسيان فافر.

ولد بروديل عام 1902م في منطقة اللورين التي كانت واقعة في ذلك الوقت تحت الاحتلال الألماني حيث كان يسود فيها شعور وطني يدعو الفرنسيين لمقاومة الاحتلال الأجنبي. وفي 23 تموز، حصّل بروديل على شهادة التبريز التي جعلته مؤهلاً للعمل في التدريس الثانوي. وهكذا فقد اشتغل بروديل في التعليم الثانوي في الجزائر لمدة تسع سنوات (1923-1932) وفي البرازيل حوالي ثلاث سنوات (1935-1937). وقد أتاحت هذه المدة الطويلة من العيش والعمل في الخارج الفرصة لبروديل لدراسة الحضارات الأخرى والتفكير بدراسة حضارات العالم دراسة مقارنة[1]. وقد تجلى ذلك واضحا في مؤلفاته التي أنجزها في الأعوام التالية حيث: "درس بروديل الحضارات بروح تأليفية عالية، وقد نأى بنفسه عن تلك الذهنية المتمحورة حول الذات الأوربية، وعن ذلك الاستعلاء الذي طبع أغلب كتابات المثقفين الغربيين عن العوالم الأخرى"[2].

وحين عودة بروديل إلى فرنسا عين عام 1938 مدرساً في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس. وفي 29 حزيران 1940 ألقى النازيون القبض على بروديل، وذلك بعد سبعة أيام من الهدنة بين فرنسا المهزومة في الحرب العالمية الثانية والمانيا المنتصرة، وأقتيد إلى المانيا حيث ظل هناك رهن الإقامة الجبرية حتى 26 أيار 1945، وقد أمضى كل ذلك الوقت في الاعداد لرسالة الدكتوراه. وفي سنة 1947 ناقش بروديل رسالته للدكتوراه وكان عنوانها: "المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني". وقد عدت هذه الرسالة، (رسالة ثورية معنى ومبنى).

---

(1) الهادي التيمومي، مقدمته لكتاب: فرنان بروديل، قواعد لغة الحضارات، بيروت، ط1، (المنظمة العربية للترجمة)، 2009، ص13-16.

(2) المرجع نفسه، ص15.

وذلك لأنها لم تسر على النهج التقليدي في دراسة التاريخ السياسي في (عهد الملك فيليب الذي حكم أسبانيا من 1556–1598م) وإنما ركزت اهتمامها على دراسة التاريخ الحضاري لمنطقة البحر الأبيض المتوسط من حيث علاقات البشر بالأرض والتبادل التجاري، وأنماط المعيشة. كما تميزت رسالة بروديل باستخدام منهجيات منفتحة على العلوم الاجتماعية المختلفة في دراسة التاريخ[3].

وقد لوحظ ان بروديل وهو يقدم فكره التاريخي المتميز "كان مسكوناً بفكرة أن علم التاريخ هو العنصر الذي من دونه لا يمكن لأي وعي وطني أن يتشكل، والوعي الوطني هو العنصر الذي من دونه لا يمكن لأي ثقافة طريفة، أو أي حضارة حقيقية أن تتشكل"[4].

ومن الواضح أن هذا الترابط بين التاريخ والوطنية والحضارة قد نضج في ذهن بروديل في جو المعاناة التي عاشها في ظل الاحتلال النازي، وهو الذي قربه من مجموعة المؤرخين الذين أنشأوا مجلة الحوليات في سنة 1929م وكان على رأسهم مارك بلوخ ولوسيان فافر.

لقد وجد بروديل أن هنالك تطابقا بين توجهاته الفكرية التي عبر عنها في رسالته للدكتوراه وتوجهات مجلة الحوليات التي كانت تعنى بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والحضاري. لذا فقد أنضم إلى هيئة تحرير المجلة فأصبح مديراً مساعداً لمدير التحرير لوسيان فافر، وبعد وفاته تولى بروديل إدارة التحرير في سنة 1969م وقد اقترن أسمه باسم هذه المجلة حتى وفاته[5].

لقد أنجز بروديل بعد حصوله على الدكتوراه العديد من المؤلفات الكبيرة التي عادت عليه بالمكانة والشهرة، كما شغل بعض المواقع العلمية المهمة فضلاً عن حصوله على عدد كبير من التكريمات كان آخرها اختياره لعضوية الاكاديمية الفرنسية في سنة 1985 وهي تعد أعلى تتويج يمكن أن يحلم به أي مثقف فرنسي. وبذلك أنضم إلى موكب أعضاء المجمع العلمي الخالدين قبيل وفاته بقليل[6].

العلاقة بين الحضارات عند بروديل:-

(3) المرجع نفسه، ص16–17.

(4) المرجع نفسه، ص15.

(5) المرجع نفسه، ص17–21.

(6) المرجع نفسه، ص23–24.

في عام 1963م نشر بروديل كتابه الموسوم "العالم الراهن"، ثم أُعيد نشره عام 1987م تحت عنوان جديد هو: "قواعد لغة الحضارات" بعد مراجعته في ضوء ما مر به العالم من أحداث ومتغيرات[7]. وسيقوم الباحث بالاعتماد على هذا الكتاب في دراسته هذه لأنه خصص فيه جزءاً كبيراً لدراسة الحضارة الإسلامية إلى جانب حضارات العالم الأخرى. كما أولى فيه عناية خاصة لدراسة علاقة هذه الحضارة بالحضارة الغربية المعاصرة والآفاق المستقبلية لهذه العلاقة.

لقد أوضح بروديل منذ البداية أنه ينطلق في دراسته للحضارات من قناعته الراسخة بوجود حضارات متعددة في هذا العالم، وأن التوجهات الحديثة في دراسة الحضارات قد تخلصت "من جملة من الأحكام القيمية، بحيث يصعب في الحقيقة تحديد أي الحضارات أفضل؟ ووفق أي مقاييس؟ وفي مثل هذه الظروف، فقد فقدت الحضارة (الغربية)، بصيغة المفرد بريقها، فلم تعد كما هو الشأن بالنسبة إلى القرن الثامن عشر، أعلى قيمة أخلاقية وثقافية وأرقاها، ونحن لا نتردد اليوم في القول على سبيل المثال ووفق المعنى اللغوي، إن ذلك العمل السمج هو جريمة ضد الإنسانية[8]، وذلك لأن نسبة التفوق إلى الحضارة – ويعني بها هنا الحضارة الغربية – دون غيرها من الحضارات فإن ذلك يمثل إنكاراً لما قدمه العالم من حضارات واتهاماً له بالتخلف والهمجية.

في ضوء ما تقدم يشير بروديل إلى أن من المؤكد "وجود حضارات لا حضارة واحدة"[9] في العالم، وأن العلاقة بين هذه الحضارات علاقات استعارة متواصلة ومتبادلة. لذا فإن "ماضي هذه الحضارات ليس إلا تاريخ الاستعارات المتواصلة التي كانت تمارسها بعضها مع بعض عبر القرون، دون أن تفقد خصوصيتها أو طرافتها"[10].

ويرفض بروديل المنهج العضوي الذي اتبعه اشبنكلر وتوينبي في النظر إلى الحضارات وتصنيفها إلى حضارات حية وحضارات ميتة وأخرى متوقفة عن النمو أو مجهضة تمهيداً لاقناع القاريء بأن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة في العالم التي لا زالت تتمتع بالحيوية والحياة[11]، ويؤكد (أن الحضارات هي استمراريات)، وأن "كل حضارة هي ماضٍ، وماضٍ معين،

---

(7) فرنان بروديل، قواعد لغة الحضارات، ترجمة د. الهادي التيمومي، بيروت، (المنظمة العربية للترجمة)، ط1، أيار 2009.

(8) المرجع نفسه، ص59–60.

(9) المرجع نفسه، ص59.

(10) المرجع نفسه، ص60.

(11) المرجع نفسه، ص88–89، لقد قمنا بمناقشة آراء اشبنكلر وتوينبي في هذا المجال في كتابنا: المفصل في فلسفة التاريخ، بيروت، (الدار العلمية)، 2007، ص369–382، 413–418.

لا يزال حيا، وتبعاً لذلك، فإن تاريخ أي حضارة هو البحث بين المعطيات القديمة، عن تلك التي لا تزال فاعلة إلى اليوم"[12].

وعن طبيعة التفاعل بين الحضارات يقول بروديل: ان أي حضارة، تنفر عادة "من تبني ملك ثقافي قد يسيء لواحد من هياكلها العميقة، ويعتبر رفض الاستعارة هذا، وتلك العداوة الخفية أشياء نادرة نسبياً لكنها تنفذ إلى قلب هذه الحضارة. في كل يوم تستعير كل حضارة أشياء من جاراتها حتى لو وصل بها الأمر إلى (إعادة تأويل) ما تأخذه عنها وهضمه. وتبدو كل حضارة من الوهلة الأولى وكأنها محطة بضائع لا تنفك تتلقى الاخلاط من الأمتعة وترسل أخلاطاً أخرى، إلا أنه يمكن لحضارة أن تقع مراودتها فترفض بعناد تلك الإضافات الخارجية... لا توجد حضارة جديدة بهذا الاسم لا تمارس هذه المواقف المزدرية والرافضة، وفي كل مرة، يكون الرفض تتويجاً لسلسلة طويلة من التردد والتجارب.."[13].

ويلاحظ بروديل: "أن هذا النشاط المتمثل في الاستقبال أو الرفض الذي تمارسه حضارة إزاء الحضارات الخارجية، تمارسه أيضاً ببطء حيال نفسها، وهذا الاختيار هو دائماً اختيار يكون الوعي به محدوداً أو منعدماً، لكن بفضل ذلك الاختيار تتغير الحضارة تدريجياً (بالتخلي) عن جزء من ماضيها"[14].

ويخلص بروديل من هذا العرض إلى القول: "لقد تصور التحليل إلى حد الآن أن العلاقة بين الحضارات هي علاقة سلمية، وكل حضارة لها خياراتها الحرة، إلا أن العلاقات العنيفة ظلت في الأعم الأغلب هي القاعدة، وكانت علاقات مأسوية دائماً، لكنها عديمة الفائدة على المدى الطويل في أغلب الأحيان"[15].

نظرة بروديل إلى الحضارة الإسلامية:-

يلخص بروديل نظرته إلى الحضارة الإسلامية في بضعة سطور مركزة قبل الدخول في الشرح والتفصيل، فيقول تحت عنوان: لا توجد حضارة إسلامية قبل القرن الثامن أو التاسع (للميلاد) وذلك لأن الإسلام ولد في غضون سنوات، ثم توسعت دولته في غضون بضع سنوات

(12) بروديل، قواعد لغة الحضارات، ص77.

(13) المرجع نفسه، ص81-82.

(14) المرجع نفسه، ص83.

(15) المرجع نفسه، ص85.

لتصبح امبراطورية "إلا أن الحضارة الإسلامية كانت ثمرة الزواج بين تلك الإمبراطورية وحضارات قديمة، وقد تطلب ذلك، والحق يقال، الكثير من الوقت والكثير من الأجيال البشرية"[16].

"وعلى امتداد أربعة قرون أو خمسة قرون، كان الإسلام الحضارة، الأكثر إشعاعاً لكل العالم القديم، ويغطي هذا العصر الذهبي إجمالاً فترة حكم المأمون (813–833م) ابن هارون الرشيد، مؤسس بيت الحكمة ببغداد (وكانت مكتبة وفي الوقت نفسه مركز ترجمة ومرصداً فلكياً) والى موت ابن رشد آخر كبار الفلاسفة المسلمين (توفي في مراكش عام 1198م بعد أن تجاوز الثانية والسبعين بقليل)، إلا أن تاريخ الأفكار والفنون لا يفسر وحده تلك اللحظات الرائعة للإسلام"[17].

وهكذا يقرر بروديل أن عظمة الحضارة الإسلامية وازدهارها كانت بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلاديين، وهو يرى أن كل الباحثين مجمعين على هذا الأمر "إلا أن الخلاف يتعلق باللحظة التي بدأ فيها التقهقر، فإذا ما أقررنا التفسير المتواتر، فقد بدأ التراجع الحاسم منذ القرن الثالث عشر، لكن هذا يعني الخلط بين أمرين أثنين جد مختلفين: نهاية هيمنة ونهاية حضارة. من البين ان الإسلام فقد في القرن الثالث عشر مركز الريادة، لكن تقهقره الخطير لم يبدأ إلا في القرن الثامن عشر، أي منذ مدة غير بعيدة من زاوية القياس البطيء للحضارات. إن قدر الإسلام هو قدر الكثير من الأمم التي تعتبر أمماً مختلفة اليوم، لأنها تخلفت عن ركب الثورة الصناعية، أي تلك الثورة الأولى القادرة على جعل العالم يتقدم بالوتيرة الهائلة للآلة نفسها. إلا أن الإسلام لم يمت بصفته حضارة جراء عدم النجاح هذا، إنه تأخر عن أوربا بقرنين على المستوى المادي فقط"[18].

بعد هذا العرض المركز عن مراحل نشأة وازدهار وتقهقر الحضارة الإسلامية الذي قدمه بروديل، يعود ليعرض لنا نظرته إلى طبيعة هذه الحضارة في عز ازدهارها، فيشير إلى أن المؤرخ آدم متز استعمل "كلمة نهضة لتوصيف العصر الذهبي للإسلام، وهي كلمة – في رأيه – يكتنفها الغموض، وهذا يوحي بأن بريق الإسلام لا يمكن أن يقارن – من وجهة نظر غربية – إلا ببريق النهضة الايطالية الرائعة. ومهما يكن، فإن للمقارنة فائدة، وهي توجه الانتباه إلى ذلك الخليط من الثروة المادية والثروة الثقافية اللتين شكلتا بالنسبة إلى حضارة الإسلام، كما بالنسبة إلى حضارة إيطاليا في القرن الخامس عشر، لحظات من العظمة الاستثنائية، فهذه وتلك، كانتا تعتمدان على مجتمعات مدينية محظوظة بفضل التجارة والثروة، وهذه وتلك تبلورتا في إطار

(16) المرجع نفسه، ص123.

(17) المرجع نفسه، ص127.

(18) المرجع نفسه، ص123.

حلقات زاهرة وضيقة جداً من العقول الاستثنائية كانت تعيش متقدمة على عصرها، على الرغم من أنها كانت تنهل الكثير من معين الحضارة القديمة التي كانت تحترمها وتعيد إحيائها"[19].

وقد لاحظ بروديل أن الحضارة الإسلامية قد جمعت بين صفة الكونية والمحلية في تكوينها أو ما يدعى بصفة الوحدة والتنوع. فهي في الوقت الذي حملت فيه صفة الوحدة في مجال الفنون المعمارية في بناء المساجد والمدارس، وكذلك في مجال الشعر والأدب فضلاً عن فنون الصنائع وتقنياتها، ومختلف وسائل التبادل الثقافي والحضاري، فإنها قد احترمت الخصوصية المحلية المتوقدة في أسبانيا وبلاد فارس والهند وغيرها. وبذلك شهدت الحضارة الإسلامية مختلف صور التجدد والابداع في إطارها الموحد وفي الاطار المحلي في مختلف أنحاء دار الإسلام[20].

وهنا، يتوقف بروديل ليتساءل هل أن الحضارة الإسلامية خلال الحقبة من القرن 12-18 قد توقفت عن النمو والتطور أم أنها قد شهدت مرحلة الانحطاط؟.. يجيب بروديل على ذلك باقتضاب فيقول: "إن الحضارة الإسلامية توقفت فجأة في القرن الثاني عشر بعد ذلك السجل الرائع من النجاحات"[21] وهو يعرض لنا ثلاثة أسباب محتملة لهذا التوقف المفاجيء، وعلى النحو الآتي:

1. لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن سبب توقف الحضارة الإسلامية هو تراجع الاتجاهات العقلية في هذه الحضارة بسبب "الهجومات الحادة (والتي كانت جد ناجعة) للغزالي على الفلسفة والفكر الحر"[22]. إلا أن بروديل يرى أن هذا الرأي ضعيف جداً، ولم يعد يأخذ به أحد من الباحثين، وذلك لأن أبا حامد الغزالي كان ابن زمانه فهو نتيجة وسبب في الوقت نفسه وإن ردة الفعل ضد الفلسفة قد وجدت منذ الأيام الأولى لظهور الدراسات الفلسفية، ومع ذلك، فإنها لم تؤثر على مسار الحضارة الإسلامية واستمرارها[23].
2. يرى المؤرخ (س. د. غوتيين S. D. Gothein) أن المتبربرين (أي الأقوام البدوية) الذين ساهم بعضهم في إنقاذ الإسلام المهدد عسكرياً في الحروب الصليبية وفي صد الهجمات المغولية هم الذين اغتالوا الإسلام – ويقصد الحضارة الإسلامية – من الداخل، بسبب همجيتهم وبداوتهم، وإن لم يكونوا يقصدون ذلك. "لقد كان هؤلاء المنقذون الخطيرون في أسبانيا المرابطون ثم الموحدون، وهؤلاء هم بربر شمال أفريقيا، وكان

(19) المرجع نفسه، ص130.

(20) المرجع نفسه، ص131-133.

(21) المرجع نفسه، ص138.

(22) المرجع نفسه، ص138.

(23) المرجع نفسه، ص138.

الآخرون سودانيين وصحراويين وبربراً، وكانوا في الشرق الأدنى الأتراك السلاجقة؛ وهم بدو جاؤوا من السباسب الباردة، لاسيما آسيا الوسطى، أو عبيد قدامى جاؤوا من البلدان القوقازية وقد أطل التدهور عندما استولى هؤلاء القادمون الجدد على مقاليد الحكم، وآنذاك انقطعت وحدة العالم المتوسطي، وهي الوحدة التي تغذى منها الإسلام والتي لا تفقهها تلك الشعوب المتبربرة التي لا تمت بصلة إلى تقاليد المتوسط"[24].

ويرد بروديل على هذا الرأي بقوله: "إن أولئك المتبربرين، شرقاً وغرباً لم يكونوا أكثر همجية من الأغلبية العظمى للعرب الذين حملوا لواء الغزوات الأولى، وكانوا مثلهم قد دخلوا – إن بسرعة أو ببطء – في الحضارة عند اختلاطهم ببلدان الإسلام القديمة. لقد كان الخلفاء الموحدون حماة ابن رشد، وفي التاريخ التقليدي للحروب الصليبية، كانت لصلاح الدين – السلطان العظيم ذو الأصل الكردي وعدو ريتشارد قلب الأسد – صورة جميلة في عيون المتبربرين المسيحيين. وأخيراً، فإن الإسلام بفضل مصر استعاد استقلاله، وذلك بسحق المغول في عين جالوت يوم 1 أيلول 1260م، وبالاستيلاء على عكا آخر حصن مسيحي في الأرض المقدسة عام 1291م"[25].

3. وأخيراً، يقدم بروديل تفسيره لسبب توقف الحضارة الإسلامية فيرى أنه يكمن في العامل الاقتصادي، فهو يلاحظ أن من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في الحضارة الإسلامية هي سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط واستغلاله في التجارة. وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الحادي عشر حين بدأت أوربا بإعادة احتلال هذا البحر وتحويله إلى بحر داخلي خاص بها وبذلك أغلقته في وجه التجار المسلمين. ومن ثم، وبحسب رأي بروديل فقد "أصبح الإسلام – ربما يقصد المجتمع الإسلامي – مختنقاً بلا رجعة على مستوى ازدهاره وحياته اليومية"[26].

وفي ختام هذا العرض والمناقشة لأسباب توقف الحضارة الإسلامية عن النمو والتطور منذ القرن الثاني عشر يرى بروديل أن الحضارة الإسلامية "ظلت تتعيش بعد هذا الانحسار، وهي وإن لم تشهد ازدهار الأمس ومحاصيله، فإنها ظلت قائمة"[27].

بعض مسارات الحضارة الإسلامية في حقبة التوقف الحضاري منذ القرن 12–18م:–

(24) المرجع نفسه، ص139.

(25) المرجع نفسه، ص139.

(26) المرجع نفسه، ص139–140.

(27) المرجع نفسه، ص140.

يستهل بروديل حديثه عن هذه المسارات في الحضارة الإسلامية بالرد على مقولة بول فاليري (1922م): (أيتها الحضارات، نحن نعرف أنك زائلة) فيقول: "إن فاليري كان يبالغ في التشاؤم بالتأكيد. إن ما يزول على امتداد فصول التاريخ هو الازهار والغلال، أما الشجرة، فباقية أو على الأقل، فهي أصلب من أن تموت بسهولة"[28].

والحقيقة أن هذا القول ينطبق بدقة على الحضارة الإسلامية، فهي بالتأكيد قد مرت بعد القرن الحادي عشر بساعات رهيبة جداً، وقد تمثلت في مسارات متعددة. وقد حددها بروديل في التحديات التي واجهتها، وعلى النحو الآتي:

1. تجاه العالم الغربي: تمثلت المواجهة مع العالم الغربي في الحروب الصليبية للمدة من (1095–1270م) وقد تحمل فيها العالم الإسلامي معاناة ومحن عميقة، وقد خرج منها كما يقول بروديل "بنصف نتيجة ايجابية بعد إعادة السيطرة على عكا (1291م) لكن وإن أعاد السيطرة على اليابسة، فإنه فقد البحر"[29].
2. تجاه آسيا: مثلت الغزوات المغولية الطويلة والمدمرة والوحشية للمدة من (1202–1405م) كارثة ومحنة حقيقية شملت حوالي نصف دار الإسلام في تركستان، وإيران، وآسيا الصغرى، وبغداد. "وقد مثل الاستيلاء على بغداد عام 1258م رمزاً لتلك الانتكاسات الخطيرة، وسيتعافى الإسلام من هذه الجراح – كما يقول بروديل – لكن جزئياً فقط"[30].
3. وقد أشار بروديل إلى أنه في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر اجتاحت العالم الإسلامي أزمة اقتصادية عالمية عصفت بمجمل العالم القديم من الصين إلى الهند إلى أوربا، وكانت أزمة طويلة المدى أدت إلى انهيار كل شيء وعلى مدى قرون[31]. ولاشك أن آثار هذه الأزمة الاقتصادية كانت لها آثار مدمرة على المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى جانب الآثار المدمرة للغزوات المغولية والحروب الصليبية.

وعلى الرغم من كل ما تقدم، فقد كانت الحضارة الإسلامية قادرة على الإبداع وإنجاب بعض المبدعين في الحقل الثقافي، وقد أشار بروديل إلى أحدهم وهو ابن خلدون الذي عده آخر

---

(28) المرجع نفسه، ص141.

(29) المرجع نفسه، ص141.

(30) المرجع نفسه، ص141.

(31) المرجع نفسه، ص141.

عمالقة الفكر الإسلامي، وتمثل مقدمته لكتاب العبر "تأليفاً هاماً ومحاولة في منهجية مجمل التاريخ الإسلامي وسوسيولوجيته"[32].

انتعاش الحضارة الإسلامية في العهد العثماني:-

يشير بروديل إلى أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من عودة الحياة إلى الاقتصاد العالمي منذ القرن السادس عشر حيث مارس المجتمع الإسلامي دوراً وسطياً في التجارة العالمية بين الشرق والغرب. كما استفادت الحضارة الإسلامية من الصعود السياسي للدولة العثمانية (التركية) حتى القرن الثامن عشر. لقد تزامنت عودة العافية للحضارة الإسلامية "مع الغزوات السريعة والخاطفة للأتراك العثمانيين التي بدأت منذ ما قبل الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453م، وكان ذلك الانتصار المدوي الذي دشن رمزياً عصر الانتصارات التي ستعقبه والتي ستجعل من تركيا في القرن السادس عشر واحدة من أعظم القوى المتوسطية وسيقع تجميع كل العالم الإسلامي أو أقل بقليل تحت راية السادة الجدد لبيزنطة بما في ذلك البقاع المقدسة لجزيرة العرب"[33].

وفي الوقت نفسه، استولى عدد من المقاتلين المغول والأتراك تحت إمرة (بابر) أحد الأحفاد البعيدين لتيمورلنك على إمبراطورية دلهي، وأسسوا في عام 1526م إمبراطورية المغولي الأكبر (الإسلامية) والتي ستفرض نفسها على الجزء الأعظم من الهند[34].

في ضوء هذا الانبعاث للقوى الإسلامية وبخاصة العثمانية منها، يرى بروديل "أن انبعاثاً عاماً للإسلام في صيغته التركية والسنية قد تحقق، وأدى في كل مكان إلى انتصار الدين التقليدي والأرثوذكسية (أي المحافظة) من دون أي رد فعل، وهذا يمثل صعوداً جامحاً للقوة، وإخضاعاً متشدداً للعقول: لقد أصبح هناك نظاماً حديدياً. وقد تزامنت الهيمنة التركية في البلقان والشرق الأدنى مع ازدهار مادي جلي، وصعود ديموغرافي نشيط، وظهرت مدن تتمتع بمهارات عالية"[35]. وكانت القسطنطينية رمزاً لهذا الصعود والتقدم، "إن هذه العاصمة التي تنطوي مثل كل العواصم، على ترف عظيم وبؤس مريع، وفرت نماذج حضرية لحضارة إمبراطورية أصبحت

---

(32) المرجع نفسه، ص141-142.

(33) المرجع نفسه، ص142.

(34) المرجع نفسه، ص142.

(35) المرجع نفسه، ص143.

مع العثمانيين تشع إلى بعيد، وتصدر مخطط مساجدها الشاسعة، ومن بينها السليمانية، ذلك المسجد الذي بناه سليمان (القانوني) الرائع"[36].

لقد أشار بروديل إلى أن الأبحاث الحديثة بدأت تكشف تدريجياً "تلك العظمة التركية التي وقع التنكر لها سابقاً ... (من خلال) دواليب إدارة متنوعة ودقيقة وتقدمية وذات سطوة، وقادرة على إنجاز تعدادات مفصلة وعلى تصور سياسات داخلية متناغمة، وعلى تكديس مدخرات عظيمة من الذهب والفضة وعلى التعمير المنتظم (بتوطين البدو) للبلقان، وهي درع الإمبراطورية أمام أوربا. لقد كان هناك نسق من العمل القسري وجيش ملفت للأنظار بتدريباته القاسية. لقد كانت هناك في الحقيقة أصناف غريبة من الحداثة"[37].

في ضوء ما تقدم، يتوصل بروديل إلى أن الحضارة الإسلامية كانت قائمة ومؤثرة حتى القرن الثامن عشر، "فالإسلام التركي ظل لأمد طويل عظيماً وزاهراً ومخيفاً، والأمر نفسه بالنسبة إلى فارس الصفوية ... والأمر نفسه بالنسبة إلى المغولي الأعظم في بداية القرن الثامن عشر، فقد سيطر تقريباً في الجنوب على كامل الدكن على الرغم من أن الانكليز والفرنسيين كانوا يراقبونه عن كثب. لنحترس إذاً من تلك الأحكام السريعة عن التدهور المبكر جداً للإسلام ولا نسبق الأحداث"[38].

الحضارة الإسلامية والتحديات الحديثة للحضارة الغربية:-

في إطار المواجهة العسكرية بين الإمبراطورية العثمانية والدول الغربية استطاع الغرب منذ القرن الثامن عشر أن يلحق العديد من الهزائم والانكسارات بالإمبراطورية العثمانية وأن يفرض سيطرته ونفوذه على أجراء واسعة من أراضيها حتى استطاع في بدايات القرن العشرين من القضاء عليها في عقر دارها واقتسام أقاليمها بصفتها محميات أو مستعمرات للدول الغربية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

وقد تساءل بروديل عن أسباب موت الامبراطورية العثمانية، وعزا ذلك إلى ثلاثة أسباب، وهي:

1. الاختناق البحري والافتقار إلى منافذ على الفضاءات الكبرى للبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي بسبب الحصار القوي الذي فرضته أساطيل الدول الغربية عليها بسبب هيمنتها البحرية القوية.

---

(36) المرجع نفسه، ص144.

(37) المرجع نفسه، ص144.

(38) المرجع نفسه، ص145.

2. فشل الامبراطورية العثمانية في التكيف السريع والفعال مع التقنيات الصناعية الجديدة التي فرضتها الثورة الصناعية في الغرب، مما تسبب في اختلال موازين القوة لصالح الدول الغربية.
3. نهوض العملاق الروسي في القرن التاسع عشر ودخوله في صراعات سياسية وحربية مع الدولة العثمانية مما تسبب في امتصاص قدراتها وإضعافها[39].

ولا يرى بروديل ضرورة للوقوف أمام ما جرى لأقاليم الامبراطورية العثمانية بعد خضوعها للاستعمار الغربي حتى نجاحها في التحرر منه وإقامة دول مستقلة على أساس وطني أو قومي في أواسط القرن العشرين. لكنه يشير باقتضاب إلى ذلك بقوله: لقد تسبب ذلك التراجع المتأخر للعالم الإسلامي "إن كثيراً أو قليلاً، لكن الحقيقي في القرن التاسع عشر في سلسلة من الاهانات والامتعاض والآلام ثم في تعميم الهيمنة الأجنبية، والوقائع معروفة جيداً. وتركيا هي الوحيدة التي أفلتت من ذلك المصير المشترك. ومن هنا جاءت ردة فعلها العنيفة والباهرة عشية ذلك الوضع المثقل بالمخاطر مع مصطفى كمال باشا (1920–1938) وهي ردة فعل مثالية، أصبحت نموذجاً للانتصارات القومية التي ستتلوها"[40].

وقد خصص بروديل بضعة صفحات من كتابه للحديث عن التوجهات القومية والعلمانية التي سادت في تركيا والدول العربية والإسلامية إثر سقوط الامبراطورية العثمانية وهو يرى أن هذه التوجهات كانت ضرورية من أجل النهوض والتطور وأن من الحيوي بالنسبة لمستقبل هذه الدول أن تلتزم بسياسة تجديد حضاري شاملة. يقول بروديل: "إن للقومية دوراً تضطلع به في المستقبل القريب: ستجد كل البلدان الإسلامية، أيا كانت، نفسها مجبرة على تبني برامج إجبارية تستوجب تقشفا حاداً، وهي برامج تضامن وانضباط اجتماعي، وستساعد القومية كل واحد من هذه البلدان الفتية على مجابهة المشاكل الاقتصادية الخطيرة التي تضغط عليه، وستساعدها على قبول تجديدات ضرورية لا يمكن إلا أن تصدم بنى قديمة جداً اجتماعية ودينية وعائلية وكلها عادات قرنية موروثة عن الاجداد.. ويمكن لهذه التجديدات أن تولد ردود فعل كاسحة. لكن مهما يكن من أمر، فلابد من تعصير الإسلام وتبني الكثير من تقنيات العالم الغربي التي أصبحت اليوم قواعد الحياة العالمية. إن المستقبل رهين قبول هذه الحضارة العالمية أو رفضها.."[41].

وينبه بروديل إلى صعوبة هذه المهمة وجسامتها وذلك لأن الحضارة الإسلامية قد تأخرت عن الحضارة الغربية بقرنين: "هذان القرنان اللذان غيرا فعلاً أوربا أكثر مما غيرتها كل

(39) المرجع نفسه، ص144.
(40) المرجع نفسه، ص147.
(41) المرجع نفسه، ص152–153.

القرون من القديم إلى القرن الثامن عشر، فكيف يمكن للإسلام في لحظة واحدة أن ينجز هذه المرحلة الكبيرة جداً ويزعزع مجتمعاته العتيقة ويغيرها، على الرغم من أنه لا يملك إلا فلاحة فقيرة وهشة، وصناعة معزولة وتشبه الورم، وهي شبه مسقطة في صلب اقتصاده، ذلك الاقتصاد العاجز عن إدماج سكان خاملين وكثيري التوالد وعن تنشيطهم؟ ثم إن المجتمع الإسلامي ككل المجتمعات يملك أغنياءه، وهم على قلتهم، متنفذون جداً، وليست المعتقدات أو التقاليد في كثير من الأحيان إلا تعلاّت يتذرع بها أولئك المحظوظون الذين لهم مصلحة في الحفاظ على الطابع (القروسطي) فعلاً لبعض مجتمعاتهم مثل اليمن، أو الطابع العتيق للبعض الآخر مثل إيران، أو الطابع العتيق مثل العربية السعودية، على الرغم من البترول أو بسبب هذا البترول"[42].

ويقترح بروديل على الدول الإسلامية أن تواجه الواقع وتقبل التحدي الصعب وهو أن تسعى للاندماج في الحياة الاقتصادية العالمية وذلك بأن تنجز في أسرع وقت ممكن ثورتها الصناعية. وهو يعترف بأن "هذه المهمة سهلة التحديد، لكن ثمنها باهظ، ويتمثل في بذل جهد شاق لن تكون ثماره دانية في وقت قريب، ولن تترك بصماتها على مستويات العيش بسرعة، ولم تهيء المرحلة الاستعمارية البلدان الإسلامية لهذه المهمة. وهنا تكمن حقيقة المسؤولية الأكثر ثقلاً للبلدان الاستعمارية"[43].

صحيح إن الدول الاستعمارية قد أدخلت إلى الدول المستعمرة بعض المؤسسات الحديثة في مجالات الصحة والتعليم والمواصلات وعدد من الصناعات الأجنبية، إلا أن هذا لم يكن كله ايجابيات، وذلك لأن هذه التجديدات بحسب رأي برويدل "قد حطمت جزئياً البنى القديمة، لكن من جهة ثانية لم يقع ترميمها بطريقة سليمة تماماً، ولم تتم إعادة البناء وفق ما يتطلبه الاقتصاد الوطني، وإنما وفق ما يتطلبه اقتصاد قائم على الشراكة والتبعية للمتروبول ولحياة العالم. من هنا جاء عدم انتظام التطور حسب القطاعات، وجاءت الضرورة المفروضة اليوم على الدول المستقلة الفتية لكي تصلح هياكلها.."[44].

وفضلاً عما تقدم فقد عرض بروديل عدداً من الأفكار حول سبل تحديث الدول الإسلامية وتحقيق تنمية شاملة فيها ليس في المجالات الصناعية فقط، وإنما في مجالات الزراعة والارواء واستثمار البترول، وحل مشكلة الاستثمار، وإيجاد أسواق اقتصادية منفتحة على

(42) المرجع نفسه، ص154.

(43) المرجع نفسه، ص156.

(44) المرجع نفسه، ص157.

اقتصاديات العالم، فضلاً عن إرساء سياسة تربوية وتكوينية لليد العاملة، وتكوين إطارات تقنية ومهندسين وأساتذة وإداريين مما لا مجال لتفصيله في هذه الدراسة[45].

وفي توضيح موقف الإسلام من سياسة التجديد والتحديث الحضاري يرى بروديل أن هذه السياسة لا تتعارض مع حرص المسلمين في المحافظة على حضارتهم وإسلامهم. وقد عبر عن ذلك بقوله: "لقد وقع اتهام الإسلام طويلاً بغياب المرونة الضرورية لهذا التكيف العنيف إلى درجة أن الكثير من الملاحظين أعلنوا أن أبواب الإسلام ستكون موصدة أمام كل جهود التحديث نظراً إلى طبيعة قلب الإسلام وروحه وحضارته نفسها، وهي حضارة (منيعة) و(متشددة)، فهل هذا ممكن إلى هذه الدرجة؟ في الواقع، تقبل الإسلام في الماضي، وبإمكانه اليوم أن يتقبل أكثر من هذا العالم الحديث الذي يحاصره. فالمسيحية بالأمس تأقلمت هي أيضاً معه بعد الكثير من الاصطدامات والتململ، لكنها لم تفقد في النهاية، على الرغم من التنازلات الضرورية، شيئاً من أصالتها في خضم هذه اللعبة. إن التعامل مع الإسلام بصفته مرادف الصرامة الدينية الاستثنائية والغياب المطلق للمرونة، يعني نسيان هرطقاته (ويعني الفرق الباطنية وغيرها من الأفكار المتعارضة الكثيرة التي تدل وحدها على إمكانية تعايش المتناقضات). والقرآن نفسه يفتح أمام الاصلاح باب الاجتهاد الذي لم يغلق أبداً. يروى عن النبي (ρ) أنه أعمل فكره في الاحوال التي لا يتضمن فيها القرآن والسنة الاشارة الصريحة، فنصح عندئذ بالقياس، وعندما لا ينطبق القياس، يجب اللجوء إلى إعمال الرأي. لقد احتل هذا الاجتهاد مكاناً هاماً في البلورة اللاحقة للفكر الإسلامي"[46].

الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل:-

يحاول بروديل في دراسته عن الحضارة الإسلامية في مواجهة القرن العشرين أن يتلمس من خلال فهم أبعاد هذه المواجهة آفاق المستقبل بالنسبة للإسلام والحضارة الإسلامية من خلال ثلاثة تساؤلات، وهي:-

1. ألا تزال هناك حضارة إسلامية؟.. يجيب بروديل، إن الانقسامات القومية والسياسية قد مزقت وحدة المسلمين، وهي ستقف حجر عثرة لأمد طويل أمام احلام الوحدويين

(45) المرجع نفسه، ص156-164.

(46) المرجع نفسه، ص153.

الإسلاميين، "لكن الجامعة الإسلامية (أو الرابطة الإسلامية) بصفتها واقعاً وحقيقة حضارية موجودة اليوم كما بالأمس. ستجدون بلا شك هذه الحضارة في الحياة اليومية على كامل امتداد فضائها الجغرافي، فهناك تشابه في المعتقدات والعادات والتقاليد والعلاقات العائلية والأذواق والترفيه والألعاب والمسلكيات وحتى الطبخ.. إن أي أوربي يقوم بالانتقال من مدينة إلى أخرى في العالم الإسلامي المتوسطي، سيلاحظ نقاط التشابه أكثر من نقاط الاختلاف.."[47].

2. هل سيتخلى العالم الإسلامي عن حضارته القديمة العتيقة كما يتم التخلي عن الثياب القديمة كلما اتجه صوب التصنيع والتقنية الحديثة؟

ويجيب بروديل على هذا السؤال بقوله: إن هذا السؤال لا يتعلق بمصير الإسلام فقط "إذ يمكن طرحه بطريقة أخرى: هل ستفرض الحضارة الحديثة حضارة الآلة، وقريباً حضارة الدماغ الالكتروني والآلية والذرة التجانس على العالم وتلغي الحضارات الخاصة سواء عاد عليها ذلك بالنفع أو بالمضرة؟ من الثابت أن المكننة، بنتائجها الكثيرة جداً، قادرة على لي أعناق الكثير من هياكل الحضارات وتحطيمها وإعادة صياغتها، لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك مع كل الهياكل، لأن المكننة لا تمثل حضارة في حد ذاتها... إن اعمال الفكر في القوميات الأوربية يجعلنا نشك كثيراً في قدرة المكننة على توحيد الكون أو جعله متجانساً.. فكيف يمكن للتقنية التي عجزت عن القضاء على الخصوصيات الجهوية أن تلغي الشخصيات القوية التي هي الحضارات الكبرى (ومنها الحضارة الإسلامية) القائمة على الأديان والفلسفات والقيم الإنسانية والأخلاقية المختلفة جوهرياً فيما بينها"[48].

3. ألا يكون الخطر قاتلاً لو اختار العالم الإسلامي لتحقيق ذلك الهدف أي (الحداثة) سبيل الماركسية القادرة على نسف أحد أهم مصادر تجانس هذا العالم، أي الدين؟.. وقبل عرض إجابة بروديل على هذا التساؤل، من المفيد أن نوضح أن بروديل كان قد طرح هذا التساؤل قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتي وتنهار التجربة الشيوعية بحوالي ثلاثين سنة، ومن ثم جاء تساؤله معبراً عن القلق من سيطرة الشيوعية على العالم. ومع ذلك فإن من المفيد لهذه الدراسة أن تعرض ملخص إجابته على ذلك السؤال والتي وضعها في حوالي سنة 1963 وهو تاريخ نشر الطبعة الأولى من الكتاب.

لقد أجاب بروديل على هذا التساؤل بحذر شديد فقال: "هل نجرؤ على القول، إن الماركسية وحدها ليست حضارة بديلة، إنها توجه اجتماعي وانسانوية إرادية وعقلنة. وإذا ما

---

(47) المرجع نفسه، ص165-166.

(48) المرجع نفسه، ص167.

طبقت يوماً ما على العالم الإسلامي فإنها ستفضي بلا شك كما هو الحال في الاتحاد السوفيتي، إلى تعايش واقتسام بين الحضارة الروسية والماركسية، وكما هو الحال في الصين بين الحضارة الصينية والماركسية، وإن كانت الماركسية قد أثرت فيهما كثيراً، فإنها لم تلغ لا هذه الحضارة ولا تلك، لأن ذلك ليس هدفها"[49].

وهنا، لابد لنا من الإضافة، أن ما لم يشاهده بروديل ولم يلحظه في تعليقه أن الماركسية قد زالت من الاتحاد السوفيتي وبقيت الحضارة الروسية السلافية قائمة وكذلك في الصين بقيت الحضارة الصينية وتغيرت الشيوعية باتجاه التعايش مع الرأسمالية، وإن الدول الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق قد نهضت للمحافظة على تراثها الإسلامي، وهي تسعى لتجديده شأنها في ذلك شأن معظم الدول الإسلامية الأخرى.

ويختم بروديل دراسته حول مستقبل الحضارة الإسلامية بالقول: "إن التقنية الماركسية أو غير الماركسية بالنسبة إلى الإسلام الذي تتحكم الحياة الدينية فيه في كل أمور الحياة، هي بمثابة النار الموقدة التي يجب تخطيها دفعة واحدة حتى لا يظل الإسلام حضارة عجوزاً وحتى يتشبب في أتون الزمن الحاضر"[50].

(49) المرجع نفسه، ص168.

(50) المرجع نفسه، ص168.